في الصحراء

للأستاذ سيد قطب

[في ليلة من ليالي الخريف المقمرة ، الراكدة الهواء ؛ المخيفة الأنفاس ، وفي صحراء جبل المقطم الموحشة ، وبين هذا القفر الصامت الأيد — كانت تتراءى نخلات ساكنات في وجوم كئيب ومن بينهما نخلتان : إحداهما طويلة سامقة ، والأخرى قصيرة قميئة .

بين هاتين النخلتين دار حديث . وكانت بينهما همسات ومناجاة !] .

الصغيرة :

ما لنا في ذلك القفر هنا ... ما برحنا منذ حين شاخصات ؟
كل شيء صامت من حولنا ... وأرانا نحن أيضاً صامتات ! ؟
تطلع الشمس علينا وتغيبْ
ويطل الليل كالشيخ الكئيبْ
والنجوم الزُّهرُ تغدو وتثوبْ
وهجيرٌ وأصيلٌ ... وطلوع وأفول ... ثم نبقى في ذهول ساهمات !

* * *

أفلا تدرين يا أختي الكبيرة ... ما الذي أطلعنا بين اليبابْ
أيما إثمٍ جنيْنا أو جريرة ... سلكتْنا في تجاويف العذاب
قد سئمتُ اللبث في هذا المكان
لِبثة المصلوب في صلب الزمان
أفما آن لتبديل .... أوان ؟
حدثيني كم سنشقى ؟ ... حدثيني كم سنلقى ؟ ... حدثيني كم سنبقى ؟ واقفات ؟

الكبيرة :

أنا يا أختاه لا أدري الجواب ... ودفينُ السرِّ لم يُكشفْ لنا
منذ ما أُطلعتُ في هذا الخراب ... وأنا أسأل : ما شأني هنا ؟
فيجيب الصمتُ حولي بالسكون!
وأنا أخبط في وادي الظنون
لستُ أدري حكمة الدهر الضنين
غير أنا حائرات ... والليالي الساخرات تتجنى ساخرات لاهيات !

* * *

ربما كنا أسيراتِ القَدَرْ ... تسخر الأيامُ منا والليالي !
تضرب الأمثال فينا والعِبَرْ ... وإذا نشكو أذاها لا تبالي !
ربما كنا مساحيرَ الزمنْ !
قد مُسِخنا هكذا بين القُرُن
في ارتقاب الساحر المحيي الفطن!
فإذا كان يعودْ ... فكَّ هاتيك القيود ... فرجمْنا للوجود طائرات !

* * *

أو ترانا نسلَ أربابٍ قُدامى ... قد جفاها وتولَّى المابدونْ !
جفت الكأس لديها ، والندامى ... غادروا ندْوَتها تنعى القرونْ
أو ترانا مَسخَ شيطان رجيم !
صاغنا في ذلك القفر الغشوم !
وتولَّى هارباً خوف الرجوم !
فبقينا في العراء ... يجتوينا كل راء ... وسنبقى في جفاء شاردات !

* * *

لستُ أدري : كل شيء قد يكون ... فتلقَّى كلَّ شيء في سكون
وإذا ما غالنا غولُ المَنونْ ... فهنا يقبرُنا فيضُ اليقينْ !
ثم ساد الصمتُ كالطيف الحزين
وتسمَّعتُ لأقدام السنين
وهي تخطو خطوة الشيخ الرزين
هامساتٍ في الرمال ... منشدات في جلال ... كلُّ شيء للزوال والشتات !

(حلوان)

سيد قطب